

سر

التوبة والاعتراف



المحتويات

- I_ المحتويات 1
- II_ مقدمة 2
- III_ التوبة في الكتاب المقدس: 2
- 1_ التوبة في العهد القديم
- 2_ التوبة في العهد الجديد
- IV_ مسيرة سر التوبة والاعتراف في الكنيسة 4
- V_ مفهوم الخطيئة 5
- VI_ أهمية سر التوبة والاعتراف 6
- VII_ مفهوم التوبة 6
- VIII_ مفاعيل التوبة 7
- IX_ أسس التوبة: 8
- 1_ فحص الذات
- 2_ الشعور بالانسحاق والحزن
- 3_ الإيمان بالرب والثقة بتحننه
- X_ الاعتراف أمام كاهن 9
- XI_ مراحل الاعتراف: 10
- 1_ ما قبل الاعتراف
- 2_ خلال الاعتراف
- 3_ ما بعد الاعتراف
- XII_ مفهوم القوانين والقصاصات 11
- XIII_ خاتمة 12
- XIV_ مصادر ومراجع 14

II_ مقدمة:

"الأسرار هي أبواب النعمة والخلص، ورحمة الله التي لا تحد وصلاحه غير المتناهي هما اللذان فتحاها لندخلها"(القديس نيقولا كاباسيلاس).¹ فهي وإن تكن، لغوياً، الأمور المخفية أو المستترة، لكنها تُدرك عند المؤمنين في شركة الإيمان. ففي النهاية هي تدبير الله الخلاصي وسر محبته الفائقة.²

وإن عدت الكتب الأسرار سبعة، إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية تقر، بأن كل عمل، في الروح القدس، ينمي ويبني الجماعة، هو سر مقدس.³

وانطلاقاً من حاجة الإنسان للاشتراك بسر المسيح، تأتي الأسرار "بمثابة أبواب السماء"،⁴ التي إذا ما ولجناها، ننقل إلى المسيح معشوقنا. فالمعمودية تلدنا، والإفخارستية تغذيها وتتحدثنا بالرب، والميرون يعطينا التثبيت وعريون الروح، في حين يأتي سر التوبة والاعتراف ليصالح الإنسان مع الله من جديد من بعد المعمودية، إذا ما ابتعد عنه، وأما بقية الأسرار فتخدم الهدف نفسه ألا وهو الاتحاد بالرب.

في هذه الصفحات القليلة، سأحاول أن أتناول سراً من هذه الأسرار، ألا وهو سر التوبة والاعتراف، لشعوري بأهمية هذا السر في العودة المستمرة نحو الله، وبالتالي الاتحاد به. فهو في التعريف لغوياً، التغيير الكياني والتحول الأكمل للمؤمن نحو الله، بحيث يصبح الله هو المحور في حياته. وهذا حتى يتحقق، لا بد أن يكون مبنياً على أسس قوية واستعداد صحيح لتقبل النعمة الإلهية. فعلاً الرب يساعدني في إيصال ذلك وإيضاحه من خلال ما سأورده من براهين من الكتاب المقدس وحياة الكنيسة، ومن خلال تحديد بعض الأسس والمفاهيم المتعلقة بالتوبة.

III_ التوبة في الكتاب المقدس:**1_ التوبة في العهد القديم**

الرباط بين الجماعة والله كان دوماً معرضاً للانقطاع بسبب معاصٍ قد ترتكبها الجماعة أو شخص منها يؤثر في الجماعة سلباً. لذا كانت النوايب والنكبات بمثابة المنبه لوعي وإدراك الجماعة لخطيئتها، فتبادر إذ ذاك إلى استعادة الرباط مع الرب، فتعاقب المسؤولين عن المعصية (خروج 32 : 25_28؛ عد 7 : 9_7؛ يش 7 : 24)، أو تسارع للالتماس العفو الإلهي بممارسات نسكية وترتيبات

¹ كاباسيلاس، نيقولا، الحياة في المسيح، ترجمة البطريرك الياس الرابع، منشورات النور، 1971، ص 27 .

² كيرياكوس، الأرشمندريت أفرام، أحاديث روحية، دير سيدة البلمند البطريركي، 1996، ص 17.

³ التوبة والاعتراف، الأسرار 3، مطرانية جبيل والبترون وما يليهما للروم الأرثوذكس، ص 5.

⁴ كاباسيلاس، المرجع السابق، ص 23.

طقسية خاصة بالتوبة كالصوم (قض 20 : 26؛ 1مل 21 : 10_8)، وتمزيق الملابس ولبس المسوح (1مل 20 : 31_32؛ 2مل 6 : 30 و 19 : 1_2؛ أشع 22 : 12)، واقتراش الرماد (أشع 58 : 5). كما كانت الجماعة تلجأ، في بعض الأحيان، إلى الذبائح التكفيرية (عد 16 : 6_15)، وفي أحيان أخرى، إلى طلب الشفاعة بواسطة رئيس ديني أو نبي (خر 32 : 30_33)، أو تلجأ إلى اعتراف جماعي أمام الرب (1مل 8 : 33_34).⁵

وكثيراً ما نجد في الكتاب المقدس، أحداثاً لأشخاص يعترفون بخطاياهم، ويقدمون توبة صادقة. فعلى سبيل المثال، يعترف لامك لامرأته بأنه قد قتل رجلاً (تك 4 : 23)، وداود يعترف لنانان النبي بإثمه الذي اقترفه بحق أوريا (2صم 12 : 13)، ويصرخ إلى الرب: "قد خطئت إلى الرب" (2صم 11 : 2).⁶

الدعوة إلى التوبة، في العهد القديم، تركزت ابتداءً من القرن الثامن قبل الميلاد، نتيجةً لابتعاد إسرائيل عن الله وانتهاكه لعهد الرب. فانقد الأنبياء التوبة الشكلية غير الصادقة، ولم يكتفوا بشجب الخطايا، بل طالبوا الشعب بتوبة حقيقية مقامها "البحث عن الله" (عا 5 : 4_6)، وطلب الخير والابتعاد عن الخطيئة (عا 5 : 4_15؛ أشع 1 : 16_18)، والتوجه بالكلية إلى الله، والثقة به، والخضوع لمشيئته وإرضائه.⁷

هكذا تجذرت التوبة في العهد القديم، حتى باتت نقطةً جوهريةً في بشارة الأنبياء وحياة الجماعة التقية. فقد فهم الأنبياء التوبة على أنها الطريق الوحيد لعودة الوصال مع الله.

2_ التوبة في العهد الجديد

في مستهل الإنجيل، أول دعوة توجّه إلى الشعب، كانت "توبوا فقد اقترب ملكوت السموات" (مت 4 : 17). هذه الصرخة أطلقها في البدء من كان يهدي كثيرين من بني إسرائيل إلى الله ربهم (لو 16 : 17)، أي يوحنا المعمدان، فاتحاً بذلك باب الرجاء في الملكوت، وداعياً للاعتراف بالخطايا، وصنع أثمار تليق بالتوبة (مت 3 : 8)، وتقويم السيرة الحياتية (لو 10 : 14).
المسيح ذاته يكرر عبارة يوحنا المعمدان، فيدعو الناس إلى التوبة لأن ملكوت الله بات وشيك التحقق، لكنه "لا يكتفي فقط بإعلان اقترب ملكوت الله، بل يحققه بقدرته".⁸ فالمسيح إنما جاء ليدعو الخاطئين إلى التوبة (لو 5 : 23)، ولكي يرد الخروف الضال إلى الحظيرة (لو 15 :

⁵ معجم اللاهوت الكتابي، الطبعة الرابعة، دار المشرق، بيروت، 1999، ص 212_213.

⁶ يازجي، الأسقف يوحنا، سر التوبة في الطقس البيزنطي الأرثوذكسي، سر التوبة، منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك، 2002، ص 148_149.

⁷ المرجع ذاته، ص 148_149، راجع أيضاً معجم اللاهوت الكتابي، المرجع السابق، ص 213_214.

⁸ معجم اللاهوت الكتابي، المرجع السابق، ص 216.

4_7). فقد جاء ليعتقنا من براثن الموت والخطيئة والفساد. فما على المؤمن إذ ذاك، إلا أن يتوجه نحو المسيح بكل كيانه. متحولاً نحو الرب دون سواه.

من هنا كان تأكيد العهد الجديد، على أن الإنسان لا يمكن أن يخدم سيدين (مت 6 : 24)، فإما أن يحيا مع الرب، أو أن يحيا مع الخطيئة، لأن "كل مولود من الله لا يعمل الخطيئة، لأن زرع الله ثابت فيه، ولا يقدر أن يعمل الخطيئة وهو من الله" (1يو 3 : 9). لذلك على الخاطي أن يعود تائباً عند السقوط (2كو 2 : 12؛ مت 13 : 24_43 و 18 : 15_22)، وكله ثقة بأن الرب سيقبله بقرح نظير الابن الشاطر والخروف الضال.

إذاً، التوبة في العهد الجديد هي سر تجديد المعمودية والنعمة وطهارة النفس المفقودة بسبب الخطيئة، ومدعاة للعيش وفقاً لوصايا الرب خلال المسيرة نحو الملكوت.

IV_ مسيرة سر التوبة والاعتراف في الكنيسة:

لقد أدركت الكنيسة منذ عهدها الأول، أهمية سر التوبة والاعتراف. فقد استلمته من الرسل الذين بدورهم استلموه من الرب مباشرة، حين نفخ فيهم قائلًا: "اقبلوا الروح القدس. من غفرتكم خطاياهم تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياهم أمسكتم" (يو 20 : 22_23). لذا سعت الكنيسة أن تحيا هذا السر في كل جوانب حياتها؛ وهذا ما تشهد له شهادات عدة تتوزع على فتراتٍ من الزمن. فالآباء الرسوليون حثوا على الاعتراف بالخطايا، وضرورة الاعتراف قبل المناولة، وطلب الغفران عن كل الخطايا والسقطات. كما أنها ناشدت الأساقفة والكهنة لقبول التائبين.

هذه الممارسة، طبعاً، كانت شخصية وخاصة؛ فلم يكن من قانون ينظم هذا السر وكيفية ممارسته.⁹ فسعت الكنيسة، وعياً منها لأهمية هذا السر، على تنظيم وتفعيل ممارسته في حياة الجماعة. فظهر السر كنظام كنسي في أوائل القرن الثالث، حيث بدأت تظهر القوانين الصارمة في سر التوبة والاعتراف، كالحرمان من المناولة لسنوات عدة، والقطع من الشركة الكنسية، وفرض أعمال رحمة على التائبين....؛ وقد استغرق التنظيم في هذه الفترة ثلاثة قرون.¹⁰ أكد فيها آباء هذه الحقبة على التوبة وضرورة الاعتراف بانسحاق قلب وتواضع.¹¹

مع تنامي الرهينات اعتباراً من القرن السابع، لعب الرهبان دوراً هاماً في الارشاد الروحي. وقد شهدت هذه الفترة تحول الاعتراف الجماعي إلى اعترافٍ فرديٍّ أمام الكاهن، وذلك على عهد

⁹ يازجي، المرجع السابق، ص 153_154.

¹⁰ المرجع ذاته، ص 154_159.

¹¹ مسرة، الشماس جراسيموس، الأنوار في الأسرار، المطبعة اللبنانية، بيروت، 1887، ص 217_218.

البطريك نكتاريوس خليفة القديس يوحنا الذهبي الفم. وقد كان ذلك تقادياً للمشاكل. فصار الاعتراف أمام الكاهن، الذي يمثل الكنيسة،¹² وليس أمام الجماعة.

نتيجةً لتأثير الفكر السكولاستيكي، طغى العنصر القانوني بدل الوجه العلاجي والتطهيري على السر. فاعتباراً من القرن السادس عشر، تحول السر إلى فرضٍ أو واجبٍ قانوني يؤهل للاشتراك في المناولة؛ وُحد فيما بعد وجوب ممارسته بأربع مرات في السنة (أي خلال الأعياد الكبرى)، ثم مرة واحدة خلال الصوم الأربعيني المقدس. بعد ذلك فُرضت غرامة مالية على التائبين والمعترفين. طبعاً، هذا يعكس مقدار التراجع الروحي والظروف القاسية المؤلمة التي كان يعيشها المسيحيون في الشرق.¹³

الآن تحاول الكنيسة إعادة المفهوم الصحيح لسر التوبة والاعتراف، من خلال إلغاء الكثير من المفاهيم القضائية والقانونية الخاطئة في السر، ومن خلال محاولتها الجادة على تشجيع ممارسة هذا السر والإقبال إليه.

هكذا عاشت الكنيسة سر التوبة خلال مراحل حياتها. وقد أدرك آباؤها أهميته، فما توانوا عن الحث على ممارسته وتنظيمه طوال كل هذه السنوات.

V_ مفهوم الخطيئة:

الخطيئة بحسب المفهوم المسيحي، هي قوة تسيطر على الإنسان، تعمل بعكس مشيئة الله وعكس الإيمان. فهي من جهة قوة الشر التي تسيطر على الإنسان، ومن جهة أخرى هي العمل ضد المشيئة الإلهية.¹⁴

الخطيئة، في البدء، لم تكن موجودة، فكل شيء كان حسناً جداً (تك 1 : 31). لكن بسقوط الإنسان الأول ظهرت الخطيئة في العالم. أي أنها حالة مرضية فاسدة ومميتة تشمل كل البشر. فالموت والفساد صارا كنتيجة للخطيئة، فالابتعاد عن ينبوع الخير والصلاح والحياة يسبب طبيعياً الموت والشر. وهكذا يستغل الشيطان الخطيئة حتى يسيطر على الإنسان، ويبعده عن مصدر وجوده، أي الله. لذا تراه يسعى بكل وسائله حتى يغويه، ويجعله يغرق أكثر فأكثر في لجة الخطيئة، حتى يصل الإنسان إلى درجة يفقد فيها الرجاء بالرب، ويصير عبداً خادماً للشيطان.

¹² جماعة من المسيحيين الأرثوذكس في فرنسا، الله حي، ترجمة د. دعد قناب عائدة، منشورات دير مار الياس شويما البطريكي، ظهور الشوير، لبنان، 2000، ص 432.

¹³ يازجي، المرجع السابق، ص 161_162.

¹⁴ Γ. Σταυροπούλου, Αρχιμανδριτου Χριστοφορου, Ποιμαντική Της Μετανοίας, Αποστολική Διακονία, Εκδ Β, 1988, Σελ 37.

لكن الرب الذي دبّر خلاصنا بتجسده الإلهي، عاد فولدنا ولادة ثانية، وألبسنا الإنسان الجديد، ماحياً بذلك كل خطايانا، ومعطياً إيانا إمكانية العودة إليه شريطة أن نتقدم إليه بتوبة. أي أن "الدرجة الأولى في العودة إلى الله"¹⁵ هي التوبة، التي صارت ولادةً متجددة يعطينا الله إياها بعد المعمودية. بهذا نتحرر من كل خطايانا السابقة واللاحقة.

VI_ أهمية سر التوبة والاعتراف:

مما لا شك فيه، أن الإنسان بالمعمودية ينال الصفح عن كل ما اقترفه من خطايا. لكن بما أنه معرض للسقوط في أية لحظة، فلا بد إذاً من سر يعيده إلى الأحضان الأبوية؛ لأنه من غير الممكن أن تعاد معموديته. لذلك أسس لنا الرب سر التوبة، وأعطانا إياه بمثابة معمودية ثانية، تصالح الإنسان مع الله إذا ما أخطأ بعد المعمودية.¹⁶ فمن خلال هذا السر ينال المؤمن التائب، بقوة الروح القدس، الصفح عن جميع خطاياها التي يعترف بها، ويتحول بكل كيانه إلى الله. "فالتوبة الحقيقية ثورة تهز أعماق الكيان الداخلي الإنساني، وتبدله بشكل جذري، فيصبح الله محور حياة الإنسان".¹⁷

بالإضافة إلى أن سر التوبة يصالح الإنسان مع ذاته ومع الآخرين، لطالما أن الخطيئة تسيء للمرء على ثلاث أصعدة: الله، الآخر، الذات. لذلك تكمن أهمية هذا السر في دوره الفعال في إعادة اللحمة بين الله والإنسان، وبين الإنسان نفسه والآخر، وذلك بالتطهر من الخطيئة التي تسيء الله والآخر والذات.¹⁸

VII_ مفهوم التوبة:

البداية الواعية للحياة بالمسيح أو الحياة الروحية، هي العودة إلى الله في الإرادة التي تتكرر العالم والأنا الشخصي. هذه العودة هي النابعة من حرية الإنسان وقدرته على الاختيار. فكما أنه يرتكب الخطيئة بحريته، كذلك عليه أن يعدل عنها بحريته. وطالما أن الإنسان معرض للخطأ باستمرار، لذلك يجب أن يكون في حالة توبة مستمرة، يفرضها الشوق إلى الله والرغبة في الحياة

¹⁵ _ Ibid, p. 87

¹⁶ الدليل الرعائي للأسرار، بطريكية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، 1996، ص86.

¹⁷ _ يازجي، المرجع السابق، ص 150.

¹⁸ _ Op.cit. p.98.

معه. فالتوبة "هي ليست توبة إلى فضائل، ولكنها توبة إلى الله ذاته، هي اتحاد به واقتباس لحياته فينا".¹⁹

بالإضافة إلى أن الوعي الشخصي لفقدان الله، هي نعمة إلهية وكشف وظهور أولان لوجهه الإلهي للبشر، فالتوبة الصادقة هي "عطاء الحب الإلهي لنا، مبادرة افتقاد الأب لابنه، إنها انتظار الأب لابنه. إنها تحريك الله لقلب الخاطيء".²⁰

هكذا يجب أن تكون التوبة مستمرة بلا حدود وغير منتهية، كما أن طريق الاتحاد بالله غير منته؛ وهذه الاستمرارية لا تنتهي حتى الموت.²¹

VIII_ مفاعيل سر التوبة:

مما لا شك فيه أن الروح القدس هو مصدر قوة كل سر. فهو من يعصف في كل الأسرار بشكل غير منظور عبر أدوات منظورة حسية. هذه القوة المقدسة الموجودة في كل سر، على الرغم من أنها تتم في الكنيسة وفقاً لطقوس ورسوم معينة، إلا أنها غير محدودة ولا تستنفد مفاعيلها في الشكل الذي تظهر لنا فيه.²²

وسر التوبة كسائر الأسرار، فيه الجانب المنظور، الذي يشمل اعتراف التائب أمام الكاهن، وقراءة إفشين الحل من قبل الكاهن، بالإضافة إلى الجانب غير المنظور، الذي تعمل فيه قوة الروح القدس، فتزيل الآثام، وتعطي التبرير، وتمنح المصالحة مع الله، وتعترف المعترف من عقاب الخطيئة الأبدي، وتهب الرجاء بالحياة الأبدية.²³

الكنيسة تعتقد بإمكانية الغفران لكل الخطايا بواسطة سر التوبة والاعتراف. فرحمة الرب لا توصف وهي أوسع من خطايانا كلها. لكن ذلك مرهون بالتوبة، "فليست خطيئة بلا مغفرة إلا التي بلا توبة" (القديس اسحق السرياني).²⁴ ففقدان رجاء التوبة بشكل كامل، وإسكات صوت الضمير، وتأصل الشر في قلب الإنسان، هو تجديف على الروح القدس ولن يُغفر؛ ففي هذه الحالة يصير الإنسان مشابهاً للشيطان، وتكون إذ ذاك خطيئته للموت (1يو 5 : 16_17)، وذلك لمعادنة مثل هذا الإنسان ومحاربته للحق والتقوى.²⁵

¹⁹ التوبة والاعتراف، المرجع السابق، ص 10.

²⁰ خضر، المطران جورج، أهل بيت الله، الروح والعروس 1، مطرانية جبيل والبترون وما يليهما للروم الأرثوذكس، 2000، ص 83.

²¹ Γ. Σταυροπούλου, op.cit. p. 88.

²² الراهب الروسي سلوانس، الاعتراف قبل المناولة، ترجمة رزق الله عرمان، مجلة النور، العدد 6 و7، السنة 1946، ص 204.

²³ مسرة، المرجع السابق، ص 236_237.

²⁴ نينو، الياس شفيق، طريق الخلاص، سر التوبة والاعتراف، الطبعة الأولى، جمعية الثقافة والتعليم الأرثوذكسية، عمان، 1997، ص 18.

²⁵ مسرة المرجع السابق، ص 236_237.

إذاً مفاعيل سر التوبة والاعتراف تتوقف على قبول الإنسان لها، فالغفران والحل هما ممكنان في كل الحالات بالتوبة الحقيقية الصادقة.

IX_ أسس التوبة:

حتى يجني المؤمن ثمار التوبة، لابد من شروط وأسس تقوم عليها توبته حتى تكون صادقة ومثمرة. هذه الأسس تتلخص بما يلي:

1_ فحص الذات:

العمل الأول للتوبة بحسب المنطق الطبيعي، هو أن يعود المرء إلى ذاته، فيدرك خطيئته، ويقر في داخله بأنه مذنب، وهذا ما فعله الابن الشاطر حين شعر بغيبته، فقد "رجع إلى نفسه" (لو 15 : 17)، وقال "يا أبي أخطأت..." (لو 15 : 21).

هنا على المرء أن ينتبه ألا يبرر ذاته برمي علة خطاياها على الآخرين، بل عليه ان يفحص ذاته بكل دقة فيعرف خطاياها وآثامه كلها.²⁶

2_ الشعور بالانسحاق والحزن:

الخطيئة تولد في النفس حالة من الشعور بالذنب، تدفع المرء إلى الانسحاق والتخضع، فتنشئ في النفس الحزن والأسى كنتيجة للابتعاد عن الله. هذا الحزن، الناتج بسبب الخطيئة، له مفعول كبير على حث الإنسان على الاعتراف بالخفايا بكل صدق. لذا يقول القديس باسيليوس الكبير أنه: "يجب على التائبين أن يبكو بمرارة، وأن يظهروا من قلوبهم سائر علامات التوبة".²⁷ فهذه الدموع هي أفضل علاج للخاطئين والمتدنسي الأأنفس؛ فدموع بطرس المرة هي من محت خطيئة نكرانه للرب، ودموع الزانية هي من دفعت المسيح إلى تبريرها.

لكن لابد من الانتباه ألا يكون هذا الانسحاق والحزن ناتجين فقط عن خوف أو عقاب ما، لأن مثل هذا باطل وغير مفيد، فقد يبعد الخاطيء عن شره، ولكنه لا يقود إلى ندامة حقيقية؛ ولنا في الكتاب المقدس أمثلة كثيرة تبرهن ذلك، فهيرودس حزن عند طلب هيروديا، ويهوذا ندم على فعلته، وإخوة يوسف حزنوا على أخيهم حين باعوه، ولكن هؤلاء جميعاً لم يبرروا، لأن حزنهم لم يكن نابعاً عن حب عميق لله يرذل كل خطيئة ويبغضها. أما الحزن الذي بحسب مشيئة الله فكفيل أن ينشئ توبةً للخلاص لا ندم عليها (2كو 7 : 10).²⁸

²⁶ _ Γ. Σταυροπούλου, op.cit. p. 89.

²⁷ مسرة، المرجع السابق، ص 225.

²⁸ _ ملطي، القص تادروس يعقوب، تلمذتي لأب اعترافي، الحب الرعوي 2، الطبعة الثالثة، كنيسة مار جرجس باسورتنج، الإسكندرية، 1979، ص 8_9.

3_ الإيمان الوطيد بالرب والرجاء بتحننه:

لقد أعطى الرب جميع المؤمنين باسمه غفران الخطايا (أع10 : 43). لذا على كل تائب أن يؤمن ويثق، بأن الرب قد صار كفارة لخطايانا، فيتقدم واثقاً بأن الرب يقبل التائبين؛ فهو "لا يشاء أن يهلك أحد بل أن يقبل الجميع إلى التوبة" (2بط3 : 9). بالإضافة إلى أن مجيئه إلى العالم لم يكن إلا ليدعو خطاةً إلى التوبة (مت9 : 13). هذا الإيمان يجعل المؤمن واثقاً بخلاصه من براثن الشيطان والخطيئة.

X_ الاعتراف أمام كاهن:

التوبة العميقة إذا ما وجدت في النفس، سرعان ما تولد فيها شعوراً بضرورة الاعتراف والاقرار بالخطايا. الأمر الذي يتم عادةً أمام كاهن يمنح الصفح والارشاد اللازمين لاستمرار الحياة الروحية للمؤمن. وطالما أن ارتكاب الشر هو ألم لكل الأعضاء، "فإن كان عضو واحد يتألم فجميع الأعضاء تتألم معه" (1كو12 : 26). إذاً الخطيئة تسيء إلى الكنيسة جمعاء. لذلك لا بد من الاعتراف للعودة إلى أحضان الكنيسة، وتسوية ما اقترب، "فلا مصالحة مع الآخرين من غير أن يكون الوجه للوجه والقلب للقلب، ولا مصالحة مع السيد خارج هذه المعية الإنسانية التي لنا في مكان تجليه أي في الكنيسة".²⁹ من هنا تأتي ضرورة الاعتراف أمام الكاهن، الذي يمثل بشخصه الكنيسة عامةً.

البعض ينكر ضرورة الاعتراف أمام كاهن، فيبررون ذواتهم باعتراف ذاتي، أو يكتفون بتلاوة إفشين الحل فوق رؤوسهم دون أي اعتراف. لكن هذا في الحقيقة غير نافع ومنافٍ لتسليم الكنيسة. فبهذا ننكر السلطان المعطى من المسيح لرساله وللأساقفة والكهنة على حل الخطايا أو إمساكها، فكيف نُمسك الخطايا أو نُحل دون أن نعرف أو أن نُقال. كما أنه كيف للطبيب أن يعالج مريضه ويطلبه دون أن يعرف مرضه. فالكاهن مثله مثل الطبيب، والخطيئة المخبأة على حد تعبير القديس باسيليوس الكبير "هي مرض غير قابل لشفاء الروح".³⁰

بالإضافة إلى أن على التائب أن يدرك أن اعترافه ليس أمام الكاهن فحسب، إنما أمام الله مباشرةً وفي حضرة الكاهن. فالروح القدس هو من يغفر الخطايا عبر الكاهن، وهو الذي ينمي الحياة

²⁹ التوبة والاعتراف، المرجع السابق، ص21.

³⁰ نينو، المرجع السابق، ص45.

الروحية. وما الكاهن سوى "وكيل لأسرار الله"، لذا "من اللازم الاعتراف بالخطايا لمن سلم إليهم توزيع أسرار الله" (القديس باسيليوس الكبير).³¹

لهذا ينبغي على النائب أن يضع نصب عينيه، أن عدم اعترافه هو خجل مرذول، وأن إقراره بخطاياه أمام شخص لأجل نيل الشفاء، هو أفضل بكثير من الوقوف أمام ذلك المشهد العظيم، حين تُفتح الكتب، وتُعلن المستورات والخفايا. لذلك "يابني لاتستحي أن تعترف بخطاياك" (ابن سيراخ: 4 : 31).

XI_ مراحل الاعتراف:

توبة الإنسان تكتمل في اعترافه الشفهي؛ فالاعتراف هو التعبير الأكمل للتوبة، وهو بداية ثمارها. لذلك التوبة لوحدها دون اعتراف لاقيمة لها، وكذلك الاعتراف بدون توبة. وهذا ما كان مدركاً في فكر الكنيسة حين لزمتم الإثنيين في سر واحد هو سر التوبة والاعتراف. وطبعاً هذا السر، على الرغم من وحدته، إلا أنه يقسم إلى مراحل ثلاثة لتسهيل دراسته فقط. هذه المراحل هي:

1_ ما قبل الاعتراف:

الاعتراف، كما ذكرت سابقاً، هو النتيجة الطبيعية للتوبة، فهذه الأخيرة تقود الإنسان إلى الاعتراف أمام الله وأمام الكاهن الذي يمثله. لذا يجب على الماعترف أولاً أن يصلي إلى الله، ليساعده في فحص نفسه وخطاياه فحصاً دقيقاً وصادقاً، وليرسل الله له نعمة التوبة الحقيقية والقوة، لكي يتقدم في حياة جديدة، فيعترف بخطاياه بدون حجة أو تبرير، فالصلاة "بطبيعتها مدرسة للتوبة".³² من بعد ذلك، يأتي التركيز على الذات، فعلى الماعترف أن يفحص حياته وعلاقته مع الله وعلاقته مع الآخر.

ومن الأمور التي تساعدنا في التوبة والاعتراف، مطالعة الكتاب المقدس. فهو يسلط أنوار الله علينا، فينيرنا في فحص ذواتنا، ويشجعنا على الاعتراف بثقة بالرب.³³ بالإضافة إلى الصوم وأعمال البر، التي تنمي الشعور بالآخر، وتقلل من الإساءة إليه.

2_ خلال الاعتراف:

الاشتراك بهذا السر يجب أن يكون بتواضع عميق واعتراف صريح دون تبرير أوحجج لما اقتترفناه. فعلى الماعترف أن يُقر بخطاياه ببساطة ووضوح، فلا يكثر من الكلام والقصص غير

³¹ ملطي، المرجع السابق، ص 19.

³² التوبة والاعتراف، المرجع السابق، ص 12.

³³ الدليل الرعائي للأسرار، المرجع السابق، ص 101.

المنتهية، فيكتفي فقط بالضروريات؛ بالإضافة إلى أن عليه أن يعرف أنه خاطئ وبائس، فيتكلم بكل تواضع وانسحاق، ويعترف بدون كذب أو تبرير أو إلقاء الخطايا على الآخرين.

لذا على المرء المعترف أن يدين نفسه، ويتحدث بكل لباقة وحياء وورع. لأنه بخطيئته التي كان قد اقتترفها، قد أحزن الله، وأضر نفسه والقريب.³⁴

3_ مرحلة ما بعد الاعتراف:

أهم ما على المعترف أن يدركه ويثق به، هو أن الله سيغفر خطاياها كلها إذا ما اعترف بها. فسر التوبة والاعتراف يضع نهاية للابتعاد عن الله، ويعيد العلاقة السلامية بين الخالق وخليقته. وحينها يعيش الإنسان وبيتهج وبتهلل بإله المحبة والرحمة، لنواله الغفران عن خطاياها كلها. هذا الإيمان يمكن المعترف من أن يجني ثمار التوبة والاعتراف.

من هنا لابد للتائب أن يقدم ثماراً تليق بالتوبة، فبعد أن يصمم الإنسان على ترك الخطيئة ونبذها، وينال الحل منها، فما عليه عندئذٍ إلا أن ينوي على إصلاح سيرته بشوق صادق وعزم ثابت، وهذا ما يؤكد القديس باسيليوس الكبير بقوله: "أنه لا يكفي للتائبين غفران الخطايا وحده للحصول على الخلاص، بل من الضروري أن تكون لها أثماراً تليق بالتوبة".³⁵

وبالتأكيد، أن أكثر ما يساعد المعترف على جني هذه الثمار، هي التمارين والارشادات الروحية، التي يعطيها الأب الروحي، بالإضافة إلى القصصات والقوانين.

XII_ مفهوم القوانين والقصصات:

بعد الاستماع إلى الاعتراف ونيل الصفح، لا بد من قصصات وقوانين روحية تقوم ما التوى، وتصلح ما تهشم. فالعقاب المعطى لنا هو "بمثابة الدواء الذي يشفي أهواءنا ويعطينا الصحة" (القديس باسيليوس)،³⁶ بالإضافة إلى أنه تقويم للتائبين وتأديب أبوي ناجم عن المحبة الإلهية (عبر 12 : 6_8). فالعقاب، في المفهوم الأرثوذكسي، هو ليس لإيقاع عدل الله، إنما وسيلة لتأديب الخاطئ، تتبع من محبة الله للإنسان، وليس من سخطه أو غضبه. فالله لما فرض العقاب على أولي الجبله حين سقوطهما، على حد تعبير القديس يوحنا الذهبي الفم، "يبدو عقاباً وجزاءً. لكن في الحقيقة هذا نصيحة ودواء وعناية بالجروح التي نشأت بسبب الخطيئة".³⁷ فالطرد كان عملاً

³⁴ _ Γ. Σταυροπουλου, op.cit. p. 101_ 102

³⁵ _ مسرة، المرجع السابق، ص 228.

³⁶ _Ιερουμοναχου Γρηγοριου, Ιερα Εξομολογησις, Σχολια Των Πατερων, Αγιον Ορος, 1997, Σελ

. 123

³⁷ _ Ibid, p. 123

من أعمال المحبة الإلهية؛ فانه لم يشأ إبقاءهما في الفردوس لئلا يأكلا من شجرة الحياة، فتصبح بذلك الخطيئة معهما أزلية. لذا جاء العقاب بالطرد إشارة إلى عناية الله بآدم، وليس سخطاً منه. من هنا فهمت الكنيسة أن القصاص هو لصالحنا وهونصيحة لنا، لكيلا نستمر في الخطأ.

طبعاً حق إعطاء القصاص مُنح للكهنه من الرب نفسه (يو 20 : 23). لذلك عليهم أن يمارسوا هذا الحق بكل تمييز ودقة، ويعطوا القصاص الملائم للحالة المرضية، أي "أن يستعملوا الدواء النافع لكل مرض".³⁸ فالقصاصات "لا يجب أن تكون بسيطة ومتعلقة بحجم الخطيئة، لكن يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار طوعية الخاطئ لذا فالراعي بحاجة إلى حكمة منقطة النظر، وعشرة آلاف عين، حتى يستطيع أن يرى مزاج النفس من كل النواحي. لأنه كما يوجد أناس يُقادون إلى الجهل، ويفقدون كل رجاء في خلاصهم، لأنهم لم يستطيعوا أن يحتملوا الأدوية الممقته، هكذا يوجد آخرون يؤولون إلى الأسوأ، ويصبحون بلا رجاء، لأنهم لم تُفرض عليهم قصاصات موافقة لخطاياهم" (القديس يوحنا الذهبي الفم).³⁹

لهذا على المؤمن أن يدرك، أن كل القصاصات والقوانين، ناتجة عن المحبة، فيقبلها بكل ثقة، ويسعى لتطبيقها بفرح، وبذلك يدرّب نفسه لئلا يقع في الخطيئة ثانية. كما وعلى الأب الروحي أن يكون بدوره مميزاً في إعطاء الدواء المناسب، حتى يوصل المعترف إلى طريق الخلاص.

XIII_ خاتمة

حاجة الإنسان إلى القرب من الله وعدم الابتعاد عنه، هي حاجة إلى الحياة والوجود. من هنا كان لابد للإنسان المعرض لأن يهجر الله، أن يملك عناصر ومؤهلات تعيده إلى الأحضان التي غادرها. فكان سر التوبة والاعتراف على مر العصور بمثابة باب من أبواب السموات التي تعيد الإنسان ثانية إلى حظيرة، إذا ما هجرها، شريطة أن يصرخ من أعماقه بصدق: "قد أخطأت يارب". هكذا فهمت الكنيسة أن سر التوبة والاعتراف حاجة لا بديل لها؛ فسعت في تنظيمها له سعياً حثيثاً، وشجعت المؤمنين على ممارسته وفقاً لأسس وعناصر وطقوس، تساعد على تنمية وخلق توبة صادقة، تطرق صرخاتها أبواب السماء.

هذا السر، كما ذكرت، يُتم بواسطة الكاهن، الذي يستمد سلطته من الرب نفسه، فيمثل الكنيسة في الاستماع للمعترف وإعطاء الحل، ويعطي الإرشاد، ويفرض القوانين والعقوبات المناسبة كتعبير عن محبة للإنسان الخاطئ، فيقوده بهذا إلى خلاصه، ويعيده إلى حظيرة الخراف.

³⁸ _ الدليل الرعائي لأرسرار، المرجع السابق، ص 96_97.

³⁹ _ Ιερομοναχου Γρηγοριου, op.cit. p. 128.

هكذا فلندع التوبة بسرها تخلق فينا فكر المسيح، فنرى ما يرى، ونحب ما يحب، ونكره الأعمال التي يكرها، فتأخذ قلوبنا لتضعها في قلبه بحيث لا يفصل بيننا وبين المخلص حبيينا شيء.⁴⁰ ولنسارع لأن نهتف قائلين: "افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة".⁴¹

new-martyr-basilios-of-antioch.com

⁴⁰ خضر، المرجع السابق، ص 74.

⁴¹ تريوديون، طبعة ثانية، المنشورات الأرثوذكسية، طرابلس، 1994، ص 2.

مصادر

- _ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، 1994.
_ تريوديون، طبعة ثانية، المنشورات الأرثوذكسية، طرابلس، 1994.
_ معجم اللاهوت الكتابي، الطبعة الرابعة، دار المشرق، بيروت، 1999.

مراجع أجنبية وعربية

- _Ιερουμοναχου Γρηγοριου, **Ιερα Εξομολογησις**, Σχολια Των Πατερων, Αγιον Ορος, 1997.
_ Γ. Σταυροπουλου, Αρχιμανδριτου Χριστοφορου, **Ποιμαντικη Της Μετανοιας**, Αποστολικη Διακονιας, Εκδ Β', 1988, Σελ 37.
_ كاباسيلاس، نيقولا، **الحياة في المسيح**، ترجمة البطريرك الياس الرابع، منشورات النور، 1971.

- _ كيرياكوس، الأرشمندريت أفرام، **أحاديث روحية**، دير سيدة البلمند البطريركي، 1996.
- _ **التوبة والاعتراف**، الأسرار 3، مطرانية جبيل والبترون وما يليهما للروم الأرثوذكس.
- _ يازجي، الأسقف يوحنا، **سر التوبة في الطقس البيزنطي الأرثوذكسي**، سر التوبة، منشورات معهد الليتورجيا في جامعة الروح القدس، الكسليك، 2002.
- _ مسرة، الشماس جراسيموس، **الأنوار في الأسرار**، المطبعة اللبنانية، بيروت، 1887.
- _ جماعة من المسيحيين الأرثوذكس في فرنسا، **الله حي**، ترجمة د. دعد قناب عائدة، منشورات دير مار الياس شويبا البطريركي، ضهور الشوير، لبنان، 2000.
- _ **الدليل الرعائي للأسرار**، بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس، 1996.
- _ خضر، المطران جورج، **أهل بيت الله**، الروح والعروس 1، مطرانية جبيل والبترون وما يليهما للروم الأرثوذكس، 2000.
- _ نينو، الياس شفيق، **طريق الخلاص**، سر التوبة والاعتراف، الطبعة الأولى، جمعية الثقافة والتعليم الأرثوذكسية، عمان، 1997.
- _ ملطي، القص تادروس يعقوب، **تلمذتي لأب اعترافي**، الحب الرعوي 2، الطبعة الثالثة، كنيسة مار جرجس باسبورتنج، الإسكندرية، 1979.
- _ دوليان، مار فيلوكسينوس يوحنا، **المختار في الأسرار**، الطبعة الثانية، مطبعة ابن العبري، هولاندا، 1990.
- _ جبور، اسبيرو، **كيف تعترف؟**، مؤسسة دكاش للطباعة، البوار، كسروان، 1998.
- _ كوفالفسكي، بطرس، **الأسرار**، مجلة النور، العدد 7، السنة 1948.
- _ كوتيا، الشماس ديمتري، **المعرف ولاهوت الندامة**، مجلة النور، العدد 7 و 8، السنة 1949.
- _ ميشال صوان وراتب خوري، **الاعتراف**، مجلة النور، العدد 12 و 13، السنة 1946.
- _ الراهب الروسي سلوانس، **الاعتراف قبل المناولة**، ترجمة رزق الله عرمان، مجلة النور، العدد 6 و 7، السنة 1946.